

اسلمنى يا مصر...

للأستاذ محمود محمد شاكر

—>>><<<—

ظلتُ سنواتٍ معزلاً أو كالمعزول ، وما اعزّلتُ إلا لأن الحياة أرادتني على ذلك فأطعها ، ولينتي ما فعلتُ ! ثم جاءت أيام فبهزنتي حتى كادت تقتلع جذور الحياة من أعماقها في نفسي وفي قلبي وفي سائر بنياني وحواسي ، فانتبهت كالذاهل النعمور وأنا لالحدرى أحيى أنا أم ميت ، وإن كان لم يشمر بما أشعر به إلا رجلٌ أو رجلان أدركا ما أنا فيه من محنة وشقاء . ثم أنجحت النعمة وارتفعت النياوة ، وبدأتُ أرى الدنيا كما ينبغي لمثل أن يراها ، فأقبلتُ عليها أتفحصها كأنى أقرأ تاريخاً جديداً لم يكن لي به علم ولا خبير . ومن يومئذ آثرت أن أغفل شأن هذه الشعرات البيض التي تلتصق على فوديّ تذبذباً وبشيراً ، وقلت لنفسي : كذب والله على بن جبلة الخزاعي ، فإنى لأجد هذه الشعرات البيض أخف على قلبي محلاً وأشهى إلى نفسي من

تفشى على صوت الضمير ، ونفمة مبحوحة لا تسمع بين صراخ المطامع ، وعواء الشهوات ، في ذلك العالم الهائج الشعور !
والآن . أيها الشرق . ماذا تريد ؟

فأما إن كنت تبغى الخلاص من برائن الوحش الغربى . فهناك طريق واحد لا تشعب فيه المسالك . فهو أقرب طريق ... اعرف نفسك ، وراجع قواك ، واستعد للصراع ، وابدأ في الكفاح ، ولا تستمع إلى صوت خادع يوسوس لك بالثقة في ضمير الغرب المدخول .

وأما إذا كنت تبغى الراحة مع ذلك الجليل المكدود المهدود من الساسة المترفين الناعمين ، فأمامك طرق كثيرة ذات شمع ومسللك ، وذات منمرجات ودروب . هناك المفاوضة ، والحادثة ، وجس النبض ، واستطلاع الآراء . وهناك الدبلوماسية الناعمة الرقيقة ، والسكرات الرفيقة الظريفة ، وهناك الانتظار الذى لا ينتهى ، والاستجداء الذى لا ينفى . وهناك المؤتمرات الحافلة والموائد المستديرة ، وهناك الكتب البيض ، والكتب الزرق ، والكتب الخضراء ، وما لا ينتهى من الطرق والمنمرجات والدروب !

كل ما استتمت به فى صدر شباني ، وكيف أشجى بنى . قد جملة الله بديلاً من جنون العصبية وعُرام الشباب . وأنا أسوق هنا آيات على بن جبلة ، وإن كان لا حاجة للمقال بذكرها ، لأنى أعتدّها من أجود الشمر وأرأسه وأحسنه عتيلاً لمقدم الشيب ، وأدقه تصوراً لإحساس الفزع الذى تتجرّعه النفوس الشاعرة في يوم الكربة — يوم الشيب . قال يذكر الشيب وقد بلغ الأربعين :

ألقى عصاه ، وأرخى من عمامته

وقال : ضيف . فقلت : الشيب ؟ قال : أجل !

فقلت : أخطأت دار الحى أقال : ولم ؟

صفت لك الأربعون السيم ! ثم نزل

فما شجيت بنى ما شجيت به ،

كأنما اعتم منه مفترق يجبر

ولست أنكر أن علو السن بالمرء أمر ينبغي أن يلقى له باله

ويتمهده حتى لا يؤخذ على سهوة وفي غفلة ، وأن الشيب هو

النذير العريان — ولكن ما بالشيب من عار ، فنحن إنما خلقنا

والحمد لله — أيها الشرق — لقد تكشف لك القناع عن

آخر ضمير « الضمير الأمريكانى » الذى كانت تتعلق به الأنظار ،
أنظار القائلين والحادعين !!!

والحمد لله — أيها الشرق — إن شملك الجديدة في شروق ، وشمس هذا الغرب الفاجر في غروب . وإنك تملك من الرصيد الروحى ، ومن ميراثك القديم ، ما لا يملكه هذا الغرب المتطاحن الذى يأكل بمضه بمضاً كالوحوش لأنه يحكم قانون الغابة فيما يشجر بينه من شقاق لا ينتهى ، وهل ينتهى الشقاق في الغابة بين الوحوش .

إنها الفرصة السانحة — أيها الشرق — للخلاص . فانفض عنك رجال الماضى الضعفاء المهوكين . وبرز بنفسك للميدان ، فقضايا الشعوب في هذه الأيام لا يد أن تعالجها الشعوب .

وما قضية فلسطين إلا قضية كل شعب عربى ، بل كل شعب شرقى . إنها الصراع بين الشرق الناهض ، والغرب التوحش . وبين شريعة الله للانسان وشريعة القاب للوحوش .
سبر قطب

لنحيا ونموت ، فلتكن حياتنا كلها كما بدأت جهاداً متصلاً جريئاً في سبيل الغاية التي نفخ الله فيها من أجلها الروح . وقبيح بامريء علمته الأيام ووعظته الأسى منذ كان أبوه الشيخ آدم إلى يوم الناس هذا — أن يجزع أشف جزع من منهل لم ينبج سابق من وروده ، ولن ينجو من وروده لاحق .

وليت شعري ماذا يضربني من شيبة في شمرات ، إذا كان قلبي لا يزال غصاً جديداً كأنه ابن الأسس القريب ؟ ولو قد كان ذلك ضارئى لقد هانت الحياة هوأنا يجعلها أسخف وأخف وأضال من أن أحفل بها أقل حفل . وكذلك عقدت عزى على أن أضرب في مسالك الحياة حيث لا يعوقني وقار غث ، ولا حنبلية تزمست ، وحيث أخبر الحياة على وجهها الذي هي عليه اليوم ، لأعرف ما الذي ستكون عليه غداً . فأسرعت إلى حلقات الشباب ممن تجاوزوا المشرب وأشرفوا على الثلاثين ، لأرى كيف يفكرون ، وأنظر كيف يعملون ، وأعرف ماذا يدبرون ، وأعلم أين يستقبلون فرايت ونظرت وعرفت وعلمت ، فأشفقت وأملت ، وخفت ورجوت ، ولكنني على ثقة من أن رحمة الله أوسع من أن تضيق بأمة ضلّت في بيداء هذه الحياة ، وقد خرجت تضرب في جوانبها مطموسة البصر إلا ماشاء الله .

كان من أهم ما شغلني أن أسمع ماذا يقولون عما يشغل الناس جميعاً في هذه الأيام ، وأن أناقشهم فيما يقولون حتى أعرف خبء نفوسهم وضماؤهم ، وأن أنقل ما استطعت شيئاً مما يمتلج في هذه القلوب الشابة التي تريد الحياة الحرة الكريمة — أى تريد الفطرة التي فطر الله الناس عليها . وينبني لكل صاحب قلم أن يحرص أشد الحرص على بيان ما يرى وما يراقب ، فإن الجيل الماضي الذي صارت إلى يديه مقاليد الحكم في مصر غافل كل الغفلة عن الآمال والآلام التي تساور القلوب المصرية الشابة ، وجاهل كل الجاهل بالمولود الجديد الذي ولد في أرض مصر وشب ونشأ واستوى وكاد يبلغ مبالغ الرجال . يقول قائل الشباب :

« لقد خرجت مصر كلها ، طالها وجاهلها وغنيها وفقيرها ، تنادى يوماً ما باسم « الجلاء » وباسم « وحدة وادى النيل من منبعه إلى مصبه » وباسم البلد الواحد الذي هو « مصر والسودان » . والشعوب أو الجماهير إن شئت ، لا تعرف تفاصيل التاريخ ولا يهتمها أن تعرف ، بل هي تحس وتدرك وتتمنى وتسمي وتفعل كل شيء بالإلهام الذي تدعده الفطرة المستقيمة ، وهذه الفطرة

المستقيمة إذا نظرت إلى شيء استوعبت لبه وطرحت نفايته ولقد نظر الشعب المصري بفطرته المستقيمة فرأى دولة طاغية تحتل سماء بلاده وأرضها وبحارها ، بل تحتل أرزاقها المقصومة لأهلها من طعام وشراب ، وتشاركها في نهب الهواء بل تضيق عليها أيضاً ، وتحرمها الذفحة بعد النفحة من هذه النهب . وإذن فعلى تمنع عنها ما هو مباح للوحوش في مساربها ، والبهايم في مراعيها ، والطير في مسابحها . وإذن فلا بد من أن تنظف بما يظفر به أدنا الخلائق وأهونها على الناس وعلى الله ربها وربهم . وإذن فالشعب لن يعرف إلا كلمة واحدة هي : « الجلاء » ، ولا ينادى إلا بشيء واحد هو : « اخرج من بلادى أيها الغاصب » ، ولا يعرف من التاريخ ولا من السياسة ولا من البراعة والحذق في الدهاء إلا أن هذا غاصب واقف بالمرصاد يقتاله ويفتال أسباب حياته ، ويرى به في الرغام ليعيش هو في رغد وفي مجبوحة .

« قام الشعب فأسمع من كانت له أذنان ، فإذا فئة من معترفي السياسة ، ومن كل محتال عليم اللسان ، ومن كل وجيه زبنة ماله وغناه ، ومن كل ذى سبت رفعت الأقدار بالحق أو بالباطل — قد هبوا جميعاً مع الشعب يقولون بمثل الذي يقول ، فظن الشعب أنهم قد صدقوا بعد ماضٍ كذب على التاريخ وعليهم ، فرضى عنهم وأعطاهم ، ولكن لم يلبث إلا قليلاً حتى رأى الوادى يوج عليه بالحيات الرافعى والمقارب ، وكل لدأغ ونفث وغدار ، فاتتبه فزعاً يطلب النجاة مما تورط فيه من ثقة بأقوام لم ينالوا يوماً ما ثقته ، ولا تخلمهم أمانته ، ولا رضى عن أعمالهم ، ولا سلم إليهم مقاليدهم إلا مرغماً أو مفرراً أو غدوعاً . ثم بقى الشعب يترقب نهاية هذه المفاوضات المعجبية التي نالت فيها مصر كل شيء إلا الجلاء ، وحازت كل خير إلا الاستقلال ، ورأت كل صبيبة إلا محببة أرجمال الجيوش البريطانية ذات الزى المسكرى أو الزى المدني » .

ويقول قائل الشباب : « إننى لأعرف تاريخ القضية المصرية على الوجه العقيد الذي يدلى به الساسة علينا ، ويدخلون به الخافة والذعر في قلوبنا . لأعرف من تاريخ هذه القضية إلا أن بلادى كانت توشك أن تكون قبيل سنة ١٨٨٢ إحدى الدول العظمى في العالم ، ثم إذا بأوربة كلها تتألب على هلاكها ، وقتلها ، والولوج في درمها بتحريض دولة واحدة قد امتلأ قلبها جشعاً وحقدًا . فلما ظفرت بما أرادت ، ذادت كل دولة عن

« إن القضية المصرية أبسط قضية على وجه الأرض : غاصب قد أقرت الدول جميعاً منذ سنة ١٨٨٢ أنه غاصب معتد ، ومنصوب لا يزال يصرخ منذ ذلك التاريخ ، ويقول لأهل الدنيا : أنقذوني . فما معنى الدخول في المفاوضات بيننا وبين بريطانيا ؟ إن العالم كله مطالب بإخراج بريطانيا من مصر ، ونحن لا نحب أن تفاوض بريطانيا ولا ينبغي لنا أن نفعل ، بل الذي ينبغي هو أن تفاوض الدول كلها إلا بريطانيا في شأن إخراج هذا الغاصب وإجلاله عن برنا وجونا وبحارنا ، وفي سده عن عدوانه على أعراضنا وعلى طعامنا وعلى أرزاقنا وعلى أخلاقنا وآدابنا وثقافتنا ... »

« إن بريطانيا دولة قوية ما في ذلك شك ، ولكننا أقوى منها لأننا أصحاب حق . فليعلم هؤلاء المفاوضات أن مصر لن تقبل الدنية في مستقبلها ومستقبل أجيالها ، وليعلم هؤلاء المفاوضات أنهم لا يمكن أن يكون التصرف في رقاب أهل مصر الحاضرين ، ولا في رقاب الأجيال الآتية ، وأنهم وإن كانوا مصريين كواما ، إلا أن مصر خالدة على وجه الدهر ، وهي أكرم منهم على أبنائها ورجالها الآتين . ونحن الشباب الناشئ نعرف أننا لن ننال لأنفسنا ولبلائنا حقها وحريتها إلا بالحزم والعزم وترك التهاون ، والإقلاع من هذه الخبائث التي يسمونها المفاوضات ، ونسبها نحن المساومات . ونحن الشباب الناشئ نعرف أن الحياة لا معنى لها إذا خلت من الشرف والكرامة ، وأن الشرف والكرامة عندئذ هي الموت . فلنمت كراماً صادقين ، فذلك خير من أن نمش أذلاء مستعبدين . ولتعلم هذه الفئة أنها تسير بمفاوضاتها في وادٍ ، وأن الشباب يسير في وادٍ غيره ، فليحذروا منبهة ما يفعلون ، وخير لبريطانيا أن تفهم هذا ولا تتجاهل ، فربما جاء يوم لا ينفعها فيه هذا التجاهل ، وكان خليقاً أن ينفعها الفهم وحسن الإدراك . »

هذا حديث الشباب أيها الشيوخ ، فاحذروا قداً ، فإن القوة التي تتجمع في الصدور قد أوشكت تنقض السدود التي رفعها بريطانيا وشيبتها وجعلتكم عليها قوَّاماً وحراساً . أيها الشيوخ شاركوا الشباب قبل أن يأتي يوم لا يُغنى عنكم عقلكم ولا استبصاركم ولا تلبسكم بأتواب العياصة ومُسوح الحكمة وعمائم الوقار . وذلك يوم قد دنا أوانه . محمد محمد شاكر

طريقها ، ورمت مصر غدرًا وخيانة فاحتلتها في سنة ١٨٨٢ ، وحشدتها الدول ، وخافت منبهة احتلالها لأرض مصر ، فتألبت عليها وطلبتها بالخروج منها ، فوعدت أن تجلو عن أرض مصر جلاء ناجزاً بعد أن تستقر الأمور ويتوطد سلطان العرش المززعج ، وقامت مصر تطالب بالجلاء فوعدت أيضاً بالجلاء ، وظلت بعد ذلك تمتد وتمتد وتمتد وهي لا تعمل وعداً ولا تحققه ، إلى أن كانت سنة ١٩٠٦ ، فإذا هي تعلن الجلاء إعلاناً تاماً صريحاً يتنا وضحاً ناجزاً سريعاً ، وتبدأ تجلو ، ولكن من غرفة إلى غرفة ، ومن سرير إلى سرير ، ولكنها لا تخرج من باب الدار إلى قسم الطريق .

« ثم إننا نرى هذه الفئة التي اختالت في ثياب « الزعامة » ومجدها الصحافة وسمها باسم « الزعامة » قد دخلت في المفاوضات بينها وبين البريطانيين باسم مصر ، ومصر منها برآء ، فإذا بريطانيا تزعم للشعب أنها جلت عن مصر ، فأخلت القلعة ، وأخلت فندق سيرايميس ! وكانت فيه القيادة العليا البريطانية للجيش البريطاني في مصر ، وأخلت كذا ، واستجلو عن كذا ، ولكنها تأبى في المفاوضات إلا أن تبقى في مصر لتشارك مصر في الدفاع عن أرض مصر المزرة — على بريطانيا بطبيعة الحال ! « أنتظن هذه الفئة أن الله قد سلب الشعب المصري فطرته السليمة ، حتى يتخذ كل هذه الترهات الباطلة التي يرسلها كهنة السياسة من كهوف المفاوضات على واديه المحرم ؟ لن ظنوا فقد خابت ظنونهم وباءوا بأخيبي الرأي وأيمده عن مواقع الصواب إن الذي بيننا وبين بريطانيا قد بان وتكشف لكل ذي بصر . نعم لقد مضى على مصر دهر وهي مخدوعة بالمفاوضة ، ومخدوعة بقدرة العياصة على نيل الحقوق المهضومة ، ولكن لم يبق في مصر بعد اليوم شاب في قلبه ذرة من إيمان بالحرية ، وفي عقله ذرة من حسن التقدير وصدق التفكير ، إلا وهو يعلم أصدق العلم أن المفاوضات معناها كذب القوى على الضعيف ، وذلة الضعيف بين يدي القوى . ونحن ننظر صابرين إلى هذا العبث الدائر بين رجال قد أخذوا أنيابهم ، وأعدوا مغالبيهم ، ورجال قد عرَّضوا مقاتل أمتهم لهذا الضاري المفترس ليقضم منها حيث شاء كما شاء ، ثم يقول للفريسة : لقد أعددت لك الأطباء والمرضين ليشمدوا جراحك ويحفنوا دمك ، ويدفعوا عنك عادية الردى ! وكذلك تكون شفقة الأسود الرحيمة ! »